رسالة غير معروفة
للسلطان محمد بن إسماعيل
إلى العاهل البريطاني جورج الثاني

عبد الهادي التازي

مرت المملكة المغربية، بعد وفاة السلطان المولى إسماعيل 1139-1727 بأزمة سياسية لم يشهد لها المغرب مثيلا من قبل في تاريخه العريض، فطوال ثلاثين سنة ظلت الحالة الداخلية على حال من الاضطراب والفتن أدت كما هو معلوم، علاوة على الخلل الشامل في جهاز الدولة، أدت إلى هجرة بعض رجال الفكر والعلم إلى جهات أخرى. ويكفي أن نعرف أن بعض المؤرخين المغاربة من أمثال الشيخ عبد الله كنون رأى من الفائدة لتأليفه «مدخل إلى تاريخ المغرب»(1)، وخلافا لسابقيه من أمثال الزياني والناصري وابن زيدان، رأى من الفائدة أن يحذف هذه الفترة من سرده، نظرا لكون الكتابة عن تلك الفترة كانت كتابات متضاربة أحيانا ومخجلة حينا آخر. وقد كان لها – أي هذه الفترة – الأثر السيء في كتابات مؤرخينا من الدول الشقيقة والصديقة، الأمر الذي حمل زميلنا الراحل شوقي ضيف على أن يبرز هذه الفترة التي كادت أن تعصف(2) بالدولة !

إن ازدهار الدولة أية دولة، إنما يتم عندما تتوفر الدولة على أسباب الأمن والاستقرار في الداخل. عند ذلك فقط يكون لها صوتها وصيتها في الخارج، بمعنى أنه من غير الممكن أن تحظى أمة من الأمم بمركز مرموق خارج حدودها إن لم تكن قوية عظيمة متراصة داخل حدودها، وهكذا كنا نلاحظ أن مكتسبات المغرب على الصعيد الخارجي طوال العقود الثلاثة التي نحن بصدد الحديث عنها كانت مكتسبات هزيلة إن لم تكن معدومة وهو الأمر الذي كان وراء اهتمامي بأمر هذه الفترة القلقة التي لم تقتصر مظاهر الضعف فيها على الساحة الوطنية، ولكنها تجاوزتها إلى الساحة الدولية فخَفَتَ صَيت المغرب في البلاطات الأوروبية، وفي الدولة العثمانية كذلك بما كانت تشمله من إيالات أو ولايات.

نحن لا ننسى الكلمة التي قالها اصْطيفان اكْسيل Stefan Gsell في «تاريخ إفريقيا الشمالية القديم» عندما شبه الملك ماسينيسا الذي عاش قبل الميلاد بنحو قرنين، شبَّهه بثلاثة ملوك لاحقين : يوسف بن تاشفين، وعبد المومن، ومولاي آسماعيل.

المولى إسماعيل هذا توفي في التاريخ المذكور1139هـ=1727م، وترك في صدر ما ترك إرثين اثنين ثقيلين.

الإرث الأول : «جيش البخاري» الذي أنشأه وهو بصدد ترتيب البيت المغربي الذي كان في واقع الأمر سبعة مغاربة إن لم يكن أكثر. وهو بصدد أن يحرر الثغور المغربية من الإسبان والإنجليز والبرتغال، حيث قرر إقصاء هذه الدول من الثغور بواسطة جيش البخاري الذي أشرنا إليه.

هذا الجيش الذي ظل مفخرة للمغرب وهو يشهد وحدته وتوحيده على كلمة سواء، بالرغم من بعض الانزلاقات التي لم يكن هناك مناص منها عندما كان الأمر يتعلق ببسط الأمن وضبط الاستقرار في البلاد.

الإرث الثاني مما تركه المولى إسماعيل هو ذلك العدد من الأبناء الذي أصبح المتنورون منهم يتنافسون على الحكم معتمدين في ذلك على الجيش، على ديوان العبيد، إذا شئت أن تقول.

وهنا وقبل أن ندخل في التفاصيل نشير إلى المشكل الأول وهو تدخل الجيش في أمر سياسة البلاد، هذه المشكلة التي أناخت بكلكلها على المغرب طوال تلك المدة. لأن نظرة الجيش لم تكن دائما واحدة حول اختيار هذا الأمير أو ذاك ! ولأن تطلع بعض القادة في الجيش في السياسة يعتبر من العناصر المؤثرة في خلق البلبلة في البلاد بعد أن كان هذا الجيش العنصر القوي في استتباب الطمأنينة والاستقرار.

وقد دخل المغرب التجربة الأولى في الحكم مع الأمير الأول الذي رشح لقيادة البلاد : وهو المولى أحمد الملقب بالذهبي لأنه كان معطاء، يصرف على الجيش بدون حساب، وقد رأى وبإيعاز من قادة الجيش أن يصفى بعض الولاة والعمال الذين كانوا محل ثقة عند والده.

ولكن الأمر انتهى إلى تنحيته وتنصيب أخيه المولى عبد الملك الذي ظهر منذ البداية على أنه غير كفء لدى شريحة أخرى من الجيش، فاستبدل بالأمير المولى عبد الله الذي نعرف عن نفوذ والدته الزعيمة الشهيرة خناثة بنت بكّار التي جابت الشرق، وكانت لها مراسلات مع عدد من ملوك أروبا.

جلس المولى عبد الله على أريكة الحكم ولكن ليبدل أربع مرات متوالية بإخوة له سابقين ولاحقين.

وفي إحدى تنحيات المولى عبد الله عن الحكم، تولى الأمير المولى علي بن إسماعيل الذي جرؤ على إلقاء القبض على تلك السيدة الفضلى خناثة بنت بكار وهي من هي على ما أشرنا : زوجة إسماعيل ووالدة المولى عبد الله وسيصبح حفيدها سيدي محمد هو الملك محمد الثالث. ألقوا القبض عليها بحجة أنها تعرف المخابئ التي يوجد فيها بيت المال.

وقع هذا قبل أن نشهد تنافس أميرين آخرين على الحكم هما : المستضيء بالله، وزين العابدين آتيي الذكر.

دعونا نَبقَ مع الأمير الذي ظهر على الساحة، وهو محمد بن عريبة الشاوية الأصل، هذا هو الذي سيعرف في التاريخ بلقب (محمد الثاني) بعد أن كان محمد الأول هو محمد بن الشريف أخو السلطان مولاي الرشيد ومولاي اسماعيل.

محمد الثاني رفع شعاراً جديداً، يحمل رهانا جديدا... بعد أن نال ترشيح الجيش له، وقد قام رهانه على ثلاثة مبادئ.

الأول : إسقاط المكْس عن المواطنين فلا ضريبة بعد اليوم !

الثاني : الاعتماد في تسيير الدولة على الأموال التي تأتيها مما يفرض على الصادرات والواردات في الموانئ.

الثالث : ما يتقاضاه السلطان في شكل «فديات» من الدول الأخرى مقابلة إطلاق سراح بعض الأسرى الذين كانوا يقعون في قبضة المجاهدين المغاربة. كنتُ أتحرك بين الفينة والأخرى من أجل البحث في الأرشيف الأجنبي عن صدى هذه الأخبار المغربية هناك.

ومن خلال كل تلك الجولات كانت شكوانا تتزايد، كنا نشعر بالخلل، نشعر بالحاجة الماسة إلى ترتيب بيتنا كما قلت منذ البداية.

ظللتُ أعيش مع «الثلاثين سنة» التي أعقبت نهاية السلطان المولى إسماعيل : سبعة سلاطين على أقل تقدير مرورا بالساحة. لم يظهر منهم ظهورا نسبيا سوى القليل، وأنا أعتمد في هذا الحكم على عنصرين اثنين لا ثالث لهما.

أولاً العُملات التي خلفها الملوك والتي أصبحت اليوم محل دراسة وعناية من لدن المهتمين بأمر العملات، وأذكر هنا في صدر الباحثين دانْيال أوسْطاشْ Daniel Eustache.

ثانياً : المراسلات التي خلفها أولئك السلاطين وخاصة تلك المراسلات التي كانوا يتوجهون بها إلى ملوك أو رؤساء الدول الأخرى مطالبين بتسوية بعض القضايا.

وفي هذا الصدد وعلى هذا الأساس وجدنا القليل والقليل جدا من تلك الخطابات، وهكذا فبصرف النظر عن السلطان أحمد الذهبي والسلطان المولى عبد الله، لا نكاد نجد سوى محمد الثاني المقصود بالحديث اليوم.

ومحمد الثاني هذا يختلف مؤرخو الأمس القريب حول تاريخ بيعته ومدة حكمه، وهم أي مؤرخو الأمس لا يعرفون له مراسلة مع الخارج ! وبالتالي لا يذكرون له عُملة، بل أن أوسْطاشْ سالف الذكر ينص على أنه لا عملة له.

وباختصار شديد سأرجع في ترجمته ليس للزاياني وليس للناصري ولكن إلى القادري في «نشر المثاني» الذي نلخص ما قال عنه في هذه الكلمات الموجزة التي تفيد :

أن أهل فاس بايعوا محمد ابن عريبة[3] (محمد الثاني) في آخر ربيع الأول من عام 1149هـ وأجمعوا على عدم قبول دعوة مولاي عبد الله وكان مختفيا بينهم لأسباب ذكرها القادري.

وهكذا – يقول القادري – نودي بفاس ببيعة السلطان الجليل، «ذي القدر الكبير أمير المؤمنين أبي عبد الله، الغالب بالله، والمتوكل عليه سيدي محمد ابن الخليفة الكبير المجاهد في سبيل رب العالمين أمير المؤمنين المنصور بالله أبي النصر مولاي إسماعيل ابن السلطان مولانا الشريف الحسني السجلماسي، واجتمع أهل المدينتين : فاس الإدريسية والجديدة المرينية على بيعته فكتبت له البيعة بفاس، وجعلت في خزانة مولانا إدريس، ونودي بذلك في سائر البلاد المجاورة لها». وكأني بالقادري ينقل نص البيعة المكتوبة للملك محمد الثاني.

قال : وبعث الخبر إلى عبيد «مَشْرع الرّمل»... وكان هذا يعني أن السلطان بويع من لدن أهل فاس حيث جعلوا جيش العبيد أمام الأمر الواقع. وحيناً ألقى سيدي محمد القبض على قائد أخيه أول جمادى الثانية. والمهم أن نذكر أن الخبر

لما وصل إلى «مَشْرع الرمل» أيد الفريق المحسوب على سالم الدكالي الذي كان السلطان قد قتله بينما خالف فريق آخر، إلى أن آل الأمر إلى المصالحة والإجماع على بيعة محمد الثاني يوم 18 جمادى الثانية.

وطلع السلطان الجديد إلى فاس الجديد ودخل دار الملك فيها ومعه «جيش الودايا». وتحرك من هنا إلى دار الملك بمكناس يوم 21 من الشهر، حيث اكتشف أن بيت المال فارغ من المال الذي كان يعتمد عليه في تسيير شؤون الدولة، لقد كان أخوه المولى عبد الله أخفى – كل ما يتصل بالمال الذي كانت البلاد في الحاجة الماسة إليه.

ويمكن أن نتصور حالة الأمن بالبلاد في هذه الأثناء التي اختلط فيها الحابل بالنابل حيث عم النهب وانقطعت الميرة في المدن. وانضاف إلى كل هذه المحن أن البلاد أمست تشكو من شحة الأمطار.

في هذه الظروف أُرتبُ الرسالة التاريخية التي وجهها الملك محمد بن عريبة أو محمد الثاني إلى الملك جورج الثاني في التاريخ المذكور.

ونحن نعلم مع هذا أن الملك محمد الثاني لم يكن أجرى في أيام ولايته مَكْساً على ما أسلفنا ولا طلبَ معونة من أحد، لا في حاضر ولا باد، كما يؤكد القادري.

وقد اجتمع عليه في تاسع ذي القعدة 1149هـ «العبيد» و«الودايا» وأهل فاس وسائر قبائل الغرب. لكن الخلاف لم يلبث. ووقف البربر إلى جهة مولاي عبد الله، والعبيد لجهة أخيه سيدي محمد، وعاد السلطان لفاس حيث عهد إلى عاملها الشريف عبد المجيد بوطالب بالتحقيق في أمر ذخائر مالية مدفونة في بعض الجهات. الأمر الذي مكنه فعلا من الحصول على ما مكّنه من إعادة الكرة على خصومه في منتصف المحرم من عام 1150 حيث كان يحاول إرجاع طاعة المتمرّدين عليه.

وكان ما كان مما لستُ أذكره فظن شرّاً ولا تسأل عن الخير !

لقد أصبحت البلاد خرابا، وعاد سيدي محمد لمكناسة واستقر بها والمغرب على وضع اجتماعي لا يحسد عليه، وارتفعت الأسعار فبلغ القمح، بقول القادري نحو ثلاثة أوراق ونصف للصاع النبوي. وخلت فاس من السكنى نحو الثلثين.

وتحرج الوضع الغذائي حيث رأينا أن بعض الدول المجاورة (في أوروبا) تغتنم الفرص لتبيع للأهل ما يحتاجون إليه من زرع، حيث بلغ سوم القمح في هذه المدة ست أوراق للصاع النبوي.

لقد بلغ الذهول بأهل فاس إلى حد أن رَكْب الحجاج عاد من رحلته دون أن يعلم به أحد ! مع أن العادة جرت في فاس على الخروج لاستقبال الحجاج والتبرك بهم.

وقد شاهدت مدينة فاس في أواخر هذه السنة 1150، أحداثا «مخزنية» بسبب وشايات مارقة وصلت للسلطان سيدي محمد بن عريبة ذهب ضحيتها بعض الأبرياء ممن تحسَّر على فقدهم صاحب «نشر المثاني» وكان من بينهم الأمير مولاي سليمان الذي تشوش أخوه سيدي محمد من مَقْدمه لفاس مصحوبا بعدد من العبيد(4) لا سيما بعد أن صرع هؤلاء العبيد صاحب المظلة وكان من أخواله منتسبا لقبيلة الشاوية.

إلى جانب هذا وجدنا أن ابنا تاسعا من المولى إسماعيل هو مولاي المهدي، يدعو لنفسه بمدينة سلا، فيوافقه أهل المدينة وينضاف إليهم أهل الرباط وآل الصبيحي من بني حسن.

وفي ترجمة القاضي محمد يعيش الزرهوني، يذكر القادري أن السلطان سيدي محمد بن اسماعيل بلغه أن أحدهم لطم هذا القاضي فأمر بقطع رأس هذا

الأحد، وتعليقه على باب الفتوح من فاس قبل أن يقوم «عبيد الرمل»، أنصارُه بالأمس، بخلعه وبيعة أخيه المستضيئ بالله ! هنا تكثر الفتن ويقوم القلالي بالإجهاز على القاضي (يعيش) أوائل سنة إحدى وخمسين ومائة وألف.

وهكذا خلع الجيش فعلا سيدي محمد بن عربية يوم 29 صفر لأنه، على حد تعبير القادري، لم يجد ما يعطي العبيد من المرتب لهم في كل سنة.

وهنا أذكّر مرة أخرى بالرسالة التاريخية الموجهة منه إلى ملك بريطانيا. وقد وجه العبيد جماعة من «مشرع الرملة» إلى مكناسة، ودخلوا عليه في دار الملك وأخرجوه منها. ولم يجدوا ما ينهبون من الدار لأنه كان أسقط الضرائب والمكوس عن سائر أهل المغرب، وانقطعت الجبايا والهدايا عن دار الملك من سائر بلاد المغرب إلا ما يأتي من مراسي البحر أو ما يقبض من أهل الذمة، يقول القادري، أما الأعشار فقد كان العام جفافاً، فلم يكمل لأحد نصاب، وأما الزكاة فأكثر الأموال نُهب !

لذلك لم يجد سيدي محمد ما يقوم به مما يُرضي حياة الجيش، فخلعوه وبايعوا أخاه المولى المستضيء بالله الذي دخل دار الملك المرينية بفاس، يوم الجمعة سادس ربيع الثاني 1151.

ولما انتقل إلى مكناس وجد أخاه المخلوع سيدي محمد ما يزال سجينا فجرده وسائر عائلته مما كانوا يمتلكون من ذخائر وبعث به مع نسائه إلى تافيلالت وكان ذلك آخر العهد به(5).

فماذا عن أصداء هذا السلطان محمد الثاني في العالم الخارجي ؟ ذلك موضوع الحديث عن هذه الرسالة التي استعصى علي الوقوف عليها بعد أن علمتُ أنها توجد في الأرشيف البريطاني، لقد قيل لي : إن الورقة لا تحتمل المس، وبالتالي لا تتحمل التصوير. وقيل وقيل. لكني تمكنت أخيرا من الحصول على صورتها بمساعدة ابنتي (آس) التي أجدد الشكر لصبرها في المتابعة.

وهذا نص الرسالة مصحوبا بالصورة التي أرجو أن نحتفظ بها على ما وجدتها عليه حجما ومحتوى مع النص على أنها من أرشيف مكتبتي الخاصة حفظا للأمانة التاريخية :

بسم الله الرحمان الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العالي العظيم

عن الأمر العالي بالله المتوكل على الله،

الإمامي المحمدي الهاشمي الشريف الأفخم السلطان الأعظم

(الختم)

وهو طابع كبير على شكل بيضي على نحو ما كان الحال أيام السلطان المولى إسماعيل، ويوجد في دائرته : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، بينما يوجد داخل الختم : أمير المؤمنين محمد بن أمير المؤمنين إسماعيل ابن الشريف الحسني الله وليه ومولاه.

«إلى طاغية الإنجليز وكبيرهم صاحب برطانية وهولانْضَة واشْكُتْطلَنْظ ولِنْكَلَطِرة الري جُرْش الثاني. سلام على من اتبع الهدى، وبعد فاعلم أن والدك كان مع مولانا الوالد قدس الله روحه على حالة الصلح والمهادنة، وكانت له في جانبنا الكريم محبة وخدمة، وكان يفتخر بذلك على ملوك النصارى قاطبة. ولم ينتقل عن حالة الخدمة لجانبنا الأسمى حتى توفى فأقمتَ أنتَ مقامه وصار مولانا الوالد إلى رحمة الله ورضوانه. وتولى من بعده إخواننا واحدا بعد واحد إلى أن صار أمر هذا المغرب من فضل الله إلينا، واستقر ملكه الشامخ لدينا. فوجب علينا أن نصل أهل وُد أبينا إذ عندنا في الشرع الكريم من بر البرور أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه. فلذلك بعثنا لك خديمنا الأقرب، وربي نعمتنا الأنجب المرتضي الحاج عبد القادر بيرس الباشادور نائبا عنا في تجديد العهد معكم

والتكلم في أمر الفدية التي عندكم لبيت مال المسلمين عمره الله، الواجبة في المائة والأربع وأربعين من النصارى الإنجليز الأسارى الذين كانوا هنا بحضرتنا الكريمة لتدفعوا تلك الفدية المعلومة بشروطها المعروفة من غير زيادة ولا نقص، فإن هذا حق الجيش لا يسعدنا السكوت عنه ولا المسامحة فيه، حيث تدفعون له ذلك على الكمال إن أراد صاحبكم أن يأتي مع خديمنا المذكور لتجديد العهد وارتباط حكم المهادنة فلا بأس بذلك، فما يرى منا إلا ما يحب مما يجوز في الشرع الكريم لأنكم خدامنا سلفا عن خلف، وكل ما كان لكم في عهد مولانا الوالد من الأمور نُقرّكم عليه ونزيدكم بعده إن شاء الله، والله على ما نقول وكيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام. في غرة رمضان المعظم عام تسعة وأربعين ومائة وألف.

(انظر صورة الرسالة في الصفحة التالية)



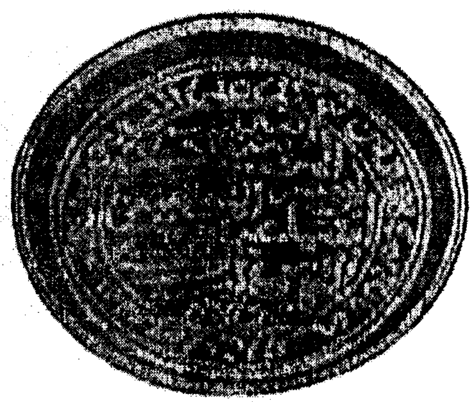
نص الرسالة

هذا وفيما يتصل بالسكة على عهد هذا السلطان الذي كان ذا طموح كبير كما رأينا، نجد أن الأستاذ دانييل أوسْطاس يؤكد في موسوعته الكبرى حول العُملة على عهد العلويين، أنه لا يوجد أثر لعملته كما أسلفنا.

وهكذا فلم يطلع على أية قطعة من السكة. ولا أدري موقفه من قطعة العملة التي عثرنا على ظهورها في تأليف حديث لأحد هواة جمع النقوذ : هو الأستاذ محمد الداودي في تأليفه الموثق الذي يحمل عنوان "Monnaies médias"(1).

لقد أتى بقطعة لعملة مستديرة الشكل نقشت على دائرتها عبارة : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره). بينما نقش في داخلها : (أمير المؤمنين محمد بن أمير المؤمنين إسماعيل الحسني الله وليه ومولاه).

لم أقف على الوجه الثاني لهذه القطعة، ومن المفترض أن هذا الوجه يحمل التاريخ ومكان ضرب السكة.



المهم بعد هذا الموجز أن نقف على صفحة من الصفحات المنسية من تاريخ المغرب، صفحة غير معروفة في أرشيفنا وفي مصادرنا ولكنها موجودة في رفوف الخزانات الأخرى خارج المغرب.

أذكر جيدا يوما من أيام الله كان هو 1984/12/27 حيث سعدت بقضاء يوم كامل بمدينة فاس مع الملك الراحل الحسن الثاني، على حافلته الخاصة التي كانت تحتضن عددا من مستشاريه وأطبائه وحاشيته، وخصص هذه الحصة من الزمان رحمه الله للاستماع إلى مشروعي حول موسوعتي عن «التاريخ الدبلوماسي للمغرب».

أذكر أنه حينما جري ذكر الوثائق الضائعة من تاريخ المغرب، والمحفوظة إلى اليوم في الأرشيفات الأوربية والأمريكية والعثمانية، ألتمس أحد الحاضرين أن يتدخل الملك من أجل استرجاع هذه الوثائق إلى حظيرة الوطن. هنا سمعنا الملك يعلق على «الملتمس» بكلمته الصادقة الصريحة :

«احمدوا الله على أن الوثائق بقيت محفوظة هناك، وإلا لو اعتمدنا فقط على ما بمكتباتنا لما وجدنا تاريخا !»

وهنا تصدى رحمه الله ليضرب المثل بالعدد العديد من الوثائق المغربية الهامة من التي توجد في الجهات الأخرى من العالم، وبخاصة في حاضرة الفاتيكان مثلا وفي المتحف الفرنسي، وفي الأرشيف البريطاني والكنائس الإسبانية والبرتغالية والباب العالي إلخ.

فهل يحق لنا مرة أخرى أن نبعث من جديد مشروعنا لكتابة تاريخ المغرب الذي كان العضو الزميل الدكتور عباس الجراري قدم باسم لجنة كتابة التاريخ عرضا حول الموضوع إلى الجلسة العادية الثالثة بتاريخ 29 رجب 1411 - 7 يبراير 1991 وخاصة من ذلك التاريخ الذي يربطنا بالأمم الأخرى، هذا التاريخ الذي تتجلى فيه حضارة المغرب كاملة بما كان يقوم به المغرب من مبادرات رائدة لمساعدة الأمم الأخرى على النهوض ببلداننا، وما كان يقوم به من تدخلات لحماية وجود الآخرين وبناء استقلالهم وإرشادهم إلى الطريق الكفيلة بتقدمهم ؟

الهوامش

1) الطبعة الثالثة، كريماديس 1378 = 1958، تطوان 117.

2) «عصر الدول والإمارات»، طبعة أولى، دار المعارف، القاهرة، رقم الإيداع القانوني 1995/7483، ص 255-5539.

3) تنسيق، «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والمثاني»، تأليف محمد بن الطيب القادري (القسم الثالث) تحقيق محمد محي، وأحمد التونسي موسوعة أعلام المغرب دار الغرب الإسلامي، ج 5، ص 2073.

4) دفن مولاي سليمان بروضة الشيخ سيدي أبي بكر بن العربي على مقرب من باب المحروق وباب المكتبة.

5) المصدر المذكور، الجزء السادس ومعه «تذكرة المحسنين بوفيات الأحياء وحوادث السنين» لعبد الكبير الفاسي، ابن زيدان : «الإتحاف» الجزء الثالث، ص 148، ط ثانية، تقديم عبد الهادي التازي، مطبعة إيديال – الدار البيضاء.

6) Edu, Serar, 1987, Casablanca, 02 Maroc, n° 1987/599, page 108.

إضافة : دانيال أوسْطاش Daniel Eustache خبير لدى بنك المغرب، مكلّف بدراسات النمّيات العربية. أصدر له بنك المغرب «الجامع في الدراهم الإدريسية والدراهم المعاصرة لها» وهو كتاب صدر في سنة 1970 برعاية بنك المغرب.